

بديع الزمان والحركة النورية

بقلم

الدكتور طالب ألب

بديع الزمان والحركة النورية*

بقلم

الدكتور طالب ألب

تنتسب الحركة النورية إلى بديع الزمان سعيد نورسي وهو عالم مبرز ، ومفكر عميق ، وأحب القياديين بين معاصريه وأبرزهم ، ولقد ترك بصماته على المجتمع الذي عاش فيه من خلال بث تعاليمه فترة طويلة من الزمن . وتتضمن مجموعة رسائل النور أفكاره وكفاحه خلال حياته المثيرة ، وتشمل تلك المجموعة مائة وثلاثين رسالة تعالج شتى الموضوعات الإسلامية . وتركزت رسائل النور حول مؤسسها ، ومن ثم فمن المفيد إلقاء نظرة سريعة على حياته لفهم طبيعة هذه الحركة .

ولقد ولد النورسي سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) في قرية نورس ومن هنا اكتسب لقبه ، وتقع هذه القرية في جنوب شرق الأناضول ، وتلقى سعيد نورسي تعليمه الإسلامي في المدارس الخاصة التقليدية . وهي مؤسسات للتعليم العالي يمكن اعتبارها مكافئة أو مناظرة للجامعات أو الكليات أو معاهد الدراسات الإسلامية المعاصرة ، وقد اعتادت كل مدرسة أن تحصل على دعم مادي من المؤسس الذي عادة ما يكون عالماً من علماء الإسلام المشهورين . وكانت هذه المدارس تهتم بحاجات الطلبة ، ولم تكن تفرض على التعليم رسوماً أو ضرائب من أي نوع ، ولقد بدأ سعيد نورسي تعليمه في المدرسة الابتدائية وهو في عمر التاسعة .

واكتشف المدرسون على الفور مواهبه الفائقة ، فلقد كان يتمتع بذاكرة حادة تمكنه من استذكار القطع العربية الصعبة واستظهارها في وقت قصير جداً .

ومما يروى في هذا الصدد أنه كان يستظهر عدداً كبيراً من المراجع الإسلامية الشهيرة ، كما كان يتمتع بقوة إدراك حاد ، وهكذا كان سعيد نورسي قادراً على أن يسير مسافات كبيرة في مجال العلوم الإسلامية في مدة زمنية وجيزة تأخذ من الآخرين سنوات طويلة لدراساتها . ومن ثم ألقى عليه أشهر العلماء اسم « بديع الزمان » .

* قدم الدكتور طالب ألب هذا البحث باللغة الإنجليزية وترجمه للعربية الأستاذ كمال توفيق الملباوي .

في القرن التاسع عشر شهد المجتمع العثماني سلسلة لا تنتهي من الحروب مع الصليبية التي كانت تخطط لتصويب ضربة قاتلة وربما أخيرة إلى الوحدة الإسلامية والقوة الإسلامية ، وقد انغمست جماعات ممن يزعمون الثقافة ويدعون الفكر من أمثال تركيا الفتاة الذين استحوذت عليهم الإنجازات المادية في الغرب ، انغمست تلك الجماعات في تفكيك عرى الخلافة . وكانت الأقليات — وبصفة خاصة — اليهود وراء تأسيس الجمعيات السرية في الأوساط المؤثرة من أجل الانتقاص من قيمة القيم والمبادئ الإسلامية التي هي أساس المجتمع المسلم وقوته .

وعلاوة على ذلك ومنذ إصدار قرار التنظيمات الشهير سنة ١٨٣٩م ازداد التأثير الأجنبي في أراضي المسلمين بدرجة لاتصدق ، ونتيجة لذلك بدأت فكرة القومية ، وهي من وحي الغرب في زرع جذورها بين أعضاء المجتمع العثماني .

وكانت الأخطار الانفصالية تجد من يغذيها في أصقاع عديدة نائية من الأراضي الإسلامية الشاسعة والتي يصعب التحكم فيها . وهكذا فتح سعيد نورسي عينيه على دنيا مليئة بالفوضى والاضطراب ، كل ذلك كان بمنزلة خلفية (دينامية) في تحديد طريقه المستقبلي في السنوات التالية .

وكانت هناك كذلك جماعات من المثقفين المتشردين الذين كانوا يبحثون لأنفسهم عن مخرج إلى مجتمع العدل والحرية والشرف الذي توهموه حيث يتمتع الأفراد باحترام متبادل وكرامة بشرية .

وفي سنة ١٩٠٩م وصلت انتقادات الصفوة لإدارة الدولة وسياساتها ذروتها . وكانت القصص والحكايات التي يتداولها المثقفون العثمانيون في دوائرهم الخاصة ويتحدثون عنها هي قصص الفساد في المكاتب الحكومية ، والرقابة في الصحف ، ورقابة الشرطة السرية . ولقد استغل اللوبي اليهودي القوى في مدينة سالونيك هذه الشكايات والمظالم التي كانت صحيحة نوعاً ما بمهارة كبيرة حتى قام الضباط العثمانيون — بعد أن خدعتهم جمعية الاتحاد والترقي — بالزحف على « اسطنبول » وملكوا زمام السلطة وخلعوا السلطان « عبد الحميد » الثاني .

ومن الجدير بالذكر أن بديع الزمان على ما يبدو كان من بين المؤيدين المتحمسين للحكومة الدستورية والتي تسمى « مشروطية » وكتب عدة مقالات في الصحف اليومية في « اسطنبول » تأييداً للمشروطية . وقد قام بالتجوال في المناطق المحيطة « باسطنبول » ودعا المواطنين المسلمين إلى الانضمام لهذه الحكومة الدستورية .

وبينما كان سعيد نورسي يشجع المواطنين الذين يستمعون له على الدفاع عن المشروطية ، لم ينس أن يحض القادة السياسيين على التمسك بالمبادئ الإسلامية تماماً . ولقد قال مراراً وتكراراً إذا لم تتبن الحكومة الدستورية المفهوم الإسلامي للحرية ، وإن لم يطبق الحكم البرلماني وفقاً

للشريعة فسوف تفلت هذه الفرصة من أيدينا ، ويحل محل ذلك حكم استبدادي ، وترجمة الفقرة الأخيرة في حديثه في « سالونيك » هي :

« يا أبناء الأمة : لاتسيئوا فهم الحرية حتى لاتطير من أيدينا ، وخشية أن تجرنا إلى العبودية العفنة القديمة المقنعة ، ومن ثم فيمكن تحقيق الحركة بالحكمة والحكم الإسلامي والخلق القويم » .

« إن الحكم الدستوري » المشروطية يقوم على العدالة والشورى ودعم القانون بالقوة . لقد تأسس النظام العظيم « الشريعة » منذ ألف وثلاثمائة سنة ومن ثم فإن استعارة الأفكار من أوروبا في مجال الشؤون الشرعية يكون قتلاً للإسلام وتغييراً لقلبة المرء (الاتجاه) نحو الشمال » .

لقد تحققت مخاوف بديع الزمان وصدق حدسه ، فإن الحكومة نفسها التي تسلمت السلطة السياسية باسم الحرية والعدالة والإسلام ألقت القبض على عدد من العلماء بما في ذلك « سعيد نورسي » وحوكم بقانون الأحكام العرفية ، واتهم بالمطالبة بالشريعة وكان رده على هذا الاتهام : « إنني أود أن أموت ألف مرة في سبيل حقيقة واحدة من حقائق الشريعة حيث إنها سبب البركة ومصدر العدالة والفضيلة » .

وفي محكمة الثورين العسكرية دافع عن قضيته بشجاعة دون خوف وكان من بين ماقاله :

« يجب عليكم أن تفهموا وتعلموا الحرية من خلال إطار الشرعية الإسلامية حتى لايتمكن الطغيان (اللاديني) من استثمارها واستغلالها لأغراضه الخاصة . ويجب عليكم تحديد حدود الحرية وفقاً للأخلاق الإسلامية التي بينتها الشريعة . وإذا أعطيت حرية غير مقيدة وغير مشروطة للجهلة والطبقات غير المتعلمة فسيتحولون إلى رعا ع ومعارضة وخروج ، ولكي تحققوا العدالة اتجهوا إلى المذاهب الإسلامية الفكرية الأربعة » .

وبعد هذه المحاكمة بقليل ترك « بديع الزمان » « اسطنبول » إلى « الأناضول » الشرقية وكان يبحث بحثاً جاداً عن حل حقيقي ودائم لعلاج الأمراض الاجتماعية والسياسية في المجتمع العثماني المريض . وفي الوقت نفسه بدأ يمهّد الطريق لتأسيس جامعة إسلامية في مدينة « فان » التي أسماها « مدرسة الزهرة » وكان يناشده أمل كبير في أن تصبح « الزهرة » الأزهر في « أناضول الشرقية » لتعليم أجيال المستقبل نور القرآن السماوي . وفي الوقت نفسه كان يتجول بين قبائل المنطقة الشرقية ، وحاول بذلك أن يقوم بتوعيتهم توعية إسلامية ، وأن يقودهم إلى المثالية المبنية على الإيمان بالله ورسوله . وتحتوي رسالة « المناظرات » المختصرة جوهر خطبه وأحاديثه إلى القبائل .

وفي هذه الفترة قام بزيارة دمشق حيث قابل كثيراً من الشخصيات الجيدة المعاصرة . ولقد طلب إليه ذات يوم أن يتحدث إلى جمع كبير من رجال الأدب في الجامع الأموي ، وقد أوضح بديع الزمان في حديثه نوع المشكلات المادية والروحية التي توترق العالم الإسلامي . كما شرح في حديثه ذات الأسباب التي أدت إلى وقوع الكارثة ، استبعاد الشعوب الإسلامية ، وأوضح الطريق إلى الإنقاذ والخلاص ، وقد تنبأ بأن الإسلام سيتقدم مادياً ومعنوياً في المستقبل وسوف تقوم حضارة إسلامية رائعة تظهر سطح الأرض من ممارسات الشر والسوء . وفيما يلي بعض اقتباسات من نصوص حديثه المعروف « بالخطبة الشامية » .

« إخواني الذين يستمعون لكلماتي في الجامع الأموي . وإخوة المسلمين الذين سيمثلون المساجد في العالم الإسلامي بعد مدة تتراوح ما بين أربعين وخمسين سنة من الآن » .

يمكن تلخيص الأمراض التي وقفت في طريق تقدمنا وحطت من قدرنا في العصور الوسطى في العوامل الستة التالية : اليأس ، وقلة الصدق في الحياة الاجتماعية والسياسية ، والعداوة ، وتجاهل الروابط الأخوية التي تشد المؤمنين سوياً ، والطغيان الذي ينتشر مثل المرض ، وترتيب الأمور الشخصية للمرء فوق كل شيء » .

« وإذا كانت حياتنا تعكس كمال الأخلاق الإسلامية وصدق الإيمان ، فإن المنتسبين إلى الديانات الأخرى سيدخلون الإسلام حتماً ، وربما طلبت قارات ودول بأكملها الدخول في الإسلام » .

لاتظنوا أنني هنا لأعلمكم درساً أخلاقياً . على العكس من ذلك فلقد صعدت هذا المنبر لأطالب بحقوقنا منكم ، وأعني بذلك أن الخير والسعادة في هذه الدنيا والآخرة للمجتمعات المسلمة الصغيرة يعتمد على الأمم الإسلامية الكبيرة مثل العرب والأتراك الذين يتصدرون الحكم والقيادة . كما أن الكسل وتعطيل الأمور يسببان ضرراً بالغاً لإخوانكم من الأقليات الإسلامية العاجزة » .

« وخصوصاً أنتم ياأمة العرب العظيمة التي استيقظت أو ستستيقظ حالا . أولاً وقبل كل شيء أود أن أخاطبكم بهذه الكلمات ، لقد كنتم أساتذة المجتمعات الإسلامية وقادتها ، وكنتم المجاهدين في الإسلام ، ثم أتت أمة الأتراك العظام وأمدتكم بالمساعدة اللازمة لتحقيق مهمتكم . ولهذا السبب فإن خطأكم بسبب الكسل خطأ عظيم كما أن جزاءكم جزاء عظيم كذلك . إننا نرجو من الرحمة والعناية الإلهية أن تجعل من العرب بعد أربعين أو خمسين سنة قوة عظيمة لتحرير الإسلام من الأسر ولتنشر حكم الإسلام في معظم أجزاء الكرة الأرضية ، وستشهد الأجيال المستقبلية هذا إن امتد أجل العالم ، ولم تحن نهايته بعد » .

وبعد أن مكث « سعيد نورسي » فترة في دمشق عاد إلى اسطنبول لحشد الدعم لجامعة الزهرة ، وتعهدت الحكومة أن تدعم المشروع مالياً ، ولذلك عاد بديع الزمان إلى مدينة « فان » لوضع حجر الأساس للجامعة المقترحة ولكن الحرب الروسية شبت في السنة نفسها ولم ير ذلك المشروع النور .

وشارك « بديع الزمان » في حرب القوقاز كقائد لفرقة المتطوعين . وقد كان موضع إعجاب الجميع لشجاعته وخدماته وفي ذلك الوقت الحرج كتب « بديع الزمان » أكبر قدر من تفسيراته للقرآن العظيم التي أسماها « إشارات الإعجاز » ولقد ساعده في كتابة هذا التفسير طالبه النجيب المتميز « ملا حبيب » .

وفي المراحل الأخيرة من الحرب . استشهد ملا حبيب وعشرون طالباً آخرون من طلبة « بديع الزمان » . وأسر « بديع الزمان » نفسه وبعض طلبته وتم ترحيله مؤخراً إلى روسيا . ومرت ستان ونصف . وهو في الأسر في « سييريا » . وحتى في هذه الظروف الحرجة لم يتوقف بديع الزمان عن أداء واجباته بصفته مسلماً . واستمر في عقد دروس إسلامية لزملائه من الضباط المسلمين حتى استطاع أن يهرب بنجاح من سييريا إلى بيترسبرج (ليننجراد) ثم إلى وارسو (بولندا) . وسافر بعد ذلك إلى « فينا » ووصل اسطنبول في سنة ١٣٣٤ هجرية ، ويحكي لنا « سعيد نورسي » أجزاء من قصة حياته في الأسر في كتاب أسماه « ليماث » .

وبعد عودته من الأسر عين عضواً في دار الحكمة الإسلامية (الأكاديمية الإسلامية) ومهما يكن من أمر فلم يكن مغرمًا بالمظهرية . وقد حاول أن يستقيل من هذا المنصب المحترم جداً ولكن أصدقاءه منعه مراراً وتكراراً من ذلك : ومرت عدة سنوات وكان بديع الزمان يراقب فيها الموقف ويقدره . ولم يكن سعيداً بالتطورات ، ولم يكن راضياً عن نفسه . ووصف نفسه في الكلمات التالية :

« إنه لشيء عجاب ، لقد كنت عضواً في دار الحكمة الإسلامية ، لأضمد جراح الأمة الإسلامية بينما كنت أنا في نفسي مريضاً أكثر من أي شخص آخر . ولقد تفكرت ملياً فيمن أتبعه . ولقد أصابتنني الدهشة ولم أشعر بالرضا عن اتباع أحد ، وبينما أنا حائر في هذه الدوامة ، خطر على قلبي — برحمة الله تعالى — أن القرآن وحده هو الذي ينير الطريق ، فهو مصدر كل الخطط الإسلامية وشمس كل الكواكب . وتشبثت بالقرآن أحسن هداية وأقدس كلمة » .

وانتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة الدولة العثمانية واندحارها وتمزقت وحدة المسلمين السياسية فوراً وغزت جيوش الصليبيين الجدد الأناضول ، وهي جيوش بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والأرمن في الشرق ، وفي هذه الفترة مكث بديع الزمان في اسطنبول ، وأشعل المقاومة ضد البريطانيين الغزاة وكتب المقالات ووزع الإعلانات والمنشورات التي تعرض الكراهية التاريخية ،

والنوايا الخبيثة للامبرالية البريطانية ، لتلك التي ينضوي عليها قلب الاستعمار ضد العالم الإسلامي عموماً والأتراك خصوصاً . وبهذه الطريقة فقد أيد بشدة وبقلب مفتوح حركة التحرير التي قامت في الأناضول .

وزار « سعيد نورسي » أنقرة بعد النصر ، ولكنه لم يجد الجو المناسب الذي كان يتوق إليه . ولقد أشار إلى مرثياته وملاحظاته في أنقرة في الجمل التالية :

« ذهبت إلى أنقرة في السنة ١٣٣٨ هـ ووجدت أن هناك فكراً إلحادياً مزعجاً يتسرب بخداع لتسميم عقول المؤمنين وإنقاص قدرهم هؤلاء الذين فرحوا بانتصار الجيش المسلم على الإغريق » .

ولقد حزن « بديع الزمان » عندما رأى بين أعضاء مجلس النواب تجاهلاً وإعراضاً عن الدين ورغبة عارمة في التغريب . ونشر تصريحاً فور ذلك يدعو أعضاء البرلمان إلى تطبيق أصول الشريعة ومبادئ الإسلام والحفاظ عليها . ولقد حذر من أن إهمال الواجبات الدينية (وخاصة الصلوات الخمس اليومية) سوف ينتج عنه فقدان الثقة ، وعدم احترام عامة المسلمين للقيادة . وعُرضت على « سعيد النورسي » عروض مغرية جذابة ، منها عضوية البرلمان ، وعضوية دار الحكمة ، والمسؤول عن الهداية والإرشاد عن المنطقة الشرقية . ولكنه رفضها جميعها . وبرغم إصرار أصدقائه ، ترك أنقرة إلى « فان » . ولقد جرد نفسه من الحياة الاجتماعية ، ونأى بنفسه إلى الاعتكاف في كهف في سفح تل في جبل « إيريك » .

وكان « بديع الزمان » يواصل حياته في عزلة ، عندما قام العصيان في نواح عديدة فاجتاحت شرق الأناضول ضد الحكم الجديد في تركيا . ولم يكن يعتقد في اللجوء إلى القوة الغاشمة ، ولكنه قال للمتمردين ألا يحاربوا ضد الأتراك الذين خدم أسلافهم قضية الإسلام لعشرة قرون . وبرغم هذه الحقيقة نُفي « بديع الزمان » سنة ١٩٢٦م وكان نفيه إلى « بازلا » وهي مدينة صغيرة في جنوب غرب الأناضول بداية لمرحلة جديدة في حياته .

حركة رسائل النور :

لقد بدأت حركة رسائل النور بمعنى الكلمة بعد نفي « بديع الزمان » إلى « بازلا » . وبرغم الصعاب الكبيرة التي كانت تنتظره فإن الجهود التي بذلها هو ورفاقه أثمرت ثمارها . كما أن الرسائل التي حملت كتابات « سعيد نورسي » انتشرت شرقاً وغرباً ولم يكن لديه ثروة ولا نقود لطباعة كتبه . وكان لابد من كتابة الرسائل بخط اليد .

وكان المشتركون أنفسهم فقراء ، ولم يستطيعوا أن يجدوا القوت الضروري . ولم تكن هناك طريقة أخرى لنشر رسائل « بديع الزمان » وتعاليمه الإسلامية إلا عن طريق كتابتها ونقلها من شخص لآخر .

ومكث « بديع الزمان » في « بازلا » ثماني سنوات ، وفي هذه الفترة قوبلت « رسائل النور » بحرارة واحترام شديد من عامة المسلمين . وفي الوقت نفسه استحوذت هذه التطورات على اهتمامات الحكومة . واتخذت السلطات إجراءات قاسية لتثبيط همة أتباع « بديع الزمان » ، ولكن الرسائل انتشرت ، وكانت استجابة الناس عظيمة برغم كل الصعاب التي كان منها حظر جميع المؤسسات والمراكز الإسلامية التعليمية ، وانتشار لادينية التعليم المعاصر وفق النموذج الغربي .

ومن الناحية الأخرى فقدت غالبية الناس الصلة بالمبادئ والأسس الأولية للإسلام . وكانت تدرس الممارسات غير الإسلامية بين الطبقات الأمية ، وتؤهل باسم الإسلام وتحت ستار الدين . وكان من المستحيل محاولة نقل حقيقة الإسلام ، وشرح أركان العقيدة ، دون أن يعرض المرء نفسه لنيران العلمانيين الذين يعملون ضد الإسلام ، والمبتدعين وأصحاب البدع الذين يختلفون بين المسلمين . ولكن « بديع الزمان » اتخذ موقفاً صريحاً واضحاً لتبيان حقائق الإسلام . وكانت سياسته ضد العلمانيين سياسة محترمة ، فلم يتعثر أو يساوم . وأقام دفاعاً مبهرأ كأحسن ما يقيمه عالم مسلم متحضر حسن الخلق ، وشجاع وعميق الفكر .

وخاطب معارضيه قائلاً :

« إنني لم أتدخل في عالمكم تحت أية ظروف ، ولم أمس مبادئكم ، والسنوات التسع الأخيرة التي قضيتها في العبودية تحمل الدليل على حقيقة عدم وجود رغبة أو مطمع لدي لعمل ذلك . فما القانون الذي يخولكم — آنذ — حق التجسس ، وممارسة هذا الضغط علي ؟ فما من حكومة ولا فرد في العالم يسمح أو يوافق على هذه المعاملة التي ألقاها ، لست وحدي فحسب ، أو البشرية أجمع ، بل الكون كله يشعر بالألم ، ويحس بالضرر ، بسبب المظالم التي تقع علي » .

ومما لاشك فيه أن رسائل النور كانت تدعو إلى الإسلام بنقائه الأصيل وطهره . وكانت تتركز على الموضوع متمثلاً في (الفهم الصحيح لأركان العقيدة) .

ولقد كان ذلك سبباً في إزعاج أعداء الإسلام الذين لم يقعدوا عن اتخاذ إجراءات عدوانية . وفي سنة ١٩٣٤م قُدم « بديع الزمان » ومائة وعشرون من طلبته للمحاكمة في « اسكشاھر » . وطلب المدعي تنفيذ حكم الإعدام فيه بدعوى أنه أقام منظمة سرية لمناهضة الحكم وقلب نظامه وأثبتت المحكمة أن تلك الادعاءات لا أساس لها من الصحة ، ولا تقوم على دليل ملموس . ولقد دحض « بديع الزمان » التهم الموجهة إليه في دفاع طويل عبقرى ، مسجل ضمن مجموعة أعماله . وبدأ دفاعه بقوله :

« لقد بلغكم تقرير عن إمكانية وقوع محاولة رجعية باستغلال الدين مما يعرض الأمن العام للخطر . فأولا وقبل كل شيء فما هو في الإمكان شيء والواقع شيء آخر . ففي إمكان أي شخص أن يقتل أناساً كثيرين ، ولكن هل يتعرض المرء للمحاكمة بسبب هذه الإمكانية . وفي إمكان عود الثقاب أن يحرق البيت هل نلقي بعود الثقاب جانباً تحاشياً لاحتمال الحريق » .

ولقد برأت المحكمة «سعيد النورسي» من التهم المنسوبة إليه ، ولكنها حكمت عليه بالسجن لمدة أحد عشر شهراً . واستأنف « بديع الزمان » هذا الحكم الذي لا يستند إلى دليل ولا معنى له . وأصر على أنه يفضل الإعدام أو السجن مدى الحياة عن أن يجازى بحكم لا يناسب إلا من يسرق « بغلا » .

وبعد عام من الحبس الانفرادي ، نفى إلى مدينة « كاستامونو » حيث اضطر للبقاء ثمانية أعوام مضنية ومؤلمة . وعلى أية حال لم يضع وقته سدى ، وقد استمر في أعمال الدعوة بكتابة خطابات ثمينة كانت تكتب بخط اليد ، ويحملها رسل خصوصيون إلى مختلف أرجاء البلاد . وهكذا ظل بديع الزمان على اتصال بطلبته السابقين وأتباعه وهو في منفاه حفاظاً على مسيرة الدعوة الإسلامية وحيويتها . أما رسائله الطويلة التي كتبها بصبر وأناة ، والتي جُمعت وأضيفت إلى عمله الأصلي ، والتي طبقت بعد ذلك فكانت رسائل مباشرة ومخلصة ومعلمة .

فلم يخاطب أتباعه من موضع العالم المتعالي ، أو المترفع ، ولكنه اختار أن يتكلم من موقع الأب الرحيم ، أو الأخ الكبير إلى أبنائه أو إخوانه الصغار ، يتمثل جل اهتمامه في تربيتهم تربية إسلامية . ولقد عبّر عن صدق الإسلام وحقيقته بمنهجية فاعله . وكان يتسع نطاق تأثير كتاباته من حين لآخر . ثم اتهم مرة أخرى بتأسيس جمعيات سرية تقلب الرأي العام ضد الحكومة وتسيء إلى الثورة الكمالية .

وفي سنة ١٩٤٣م أحضر مع طلبته من « كاستامونو » إلى « دينزلي » لمحاكمته بالتهم المنسوبة إليه والمذكورة أعلاه . ومرت شهور عديدة وهو تحت التحفظ رهن التحقيق ، وانتهت المحاكمات بانتصار ساحق للرسالة ، ودحضت التهم الموجهة إلى عمله وشخصه بحكم أجمعت عليه المحكمة سنة ١٩٤٤م .

وأقتطف هنا بعض دفاعه :

« نعم ، نحن جمعية ، جمعية أعضاؤها ثلاثمائة وخمسون مليوناً ، يحترمون جميعاً أسس هذا المجتمع احتراماً تاماً ، ويؤدون الصلاة خمس مرات في اليوم ، وهم يسارعون في عون بعضهم بعضاً اعتقاداً منهم بأن « المؤمنين أخوة » نعم إننا أعضاء هذه الجمعية العظيمة ، وواجبنا أن نعرف المؤمنين بحقيقة العقيدة ، إننا لاعلاقة لنا بالجمعيات واللجان السياسية المليئة بالمؤامرات فهي أدنى من كرامتنا .

ومن الممتع أن نلاحظ أنه برغم براءة « بديع الزمان » من التهم المنسوبة إليه إلا أنه أرسل إلى المنفى في « أميرداج » وهي مدينة صغيرة غرب الأناضول ووضع تحت ملاحظة شديدة مستمرة في منفاه . ولم يسمح له رسمياً بالدخول إلى أي مسجد في المدينة ، وتمثلت المؤامرة عليه هنا في محاولة قتله بالسم ، ولكن ذلك لم يفت في عضده ، أو يصيبه بالهلع .

ولم يتخل طول حياته عن المبادئ الإسلامية ، ولم يساوم عليها . وتكشف دراسة كتبه ورسائله دراسة عميقة عن حقيقة أن هدفه الوحيد في الحياة هو إعادة المسلمين إلى الإسلام وفق تعليم القرآن والسنة . ولم يكن هذا عملاً سهلاً .

وقد أكد « سعيد النورسي » في تعاليمه على ضرورة الإيمان الصحيح بالله والقرآن والنسبة ، وكان يحث الناس على أن يعملوا عقولهم لتحقيق معنى الإسلام كما هو مبين في القرآن الكريم والسنة النبوية . ولقد طلب ممن يستمعون إليه ألا يأخذوا كلامه قضية مسلمة ، وطلب إليهم أن يدققوا النظر في تفاسيره وأن يوضحوا أخطأه . ومما كان يهدف إليه عاجلاً تنوير الجيل الجديد ، وتركيز فهمهم للإيمان والعمل الصالح مع الإخلاص وهاهو يقول :

« إن الإيمان يرفع قدر البشرية ومكانتها . وفي الواقع فإن الإيمان يجعل الرجل قوياً ، فالمرء الذي يعرف طعم الإيمان بحق يستطيع أن يتحدى العالم بأسره .. » .

وكان يدعو أساساً إلى الوسطية والاعتدال والتسامح مع المسلمين حتى لو انتقدوه ، وكان منهجه في حل المسائل الخلافية بين المسلمين يعتمد على الحجة والصبر والإخلاص . وكان موقفه موقف الجراح المختص الذي يقوم بجراحة حساسة ، يهدف إلى إجراء الجراحة دون الإضرار بأعصاب المريض . وفي الجانب الآخر كان نقده للجماعات « كالتصوف » أخوياً وودياً للغاية ، وحكيماً وبطريقة غير مباشرة وبناء .

ولم يعمد إلى إيضاح أخطأ خصمه بطريقة فجّة ، ولكنه يبين الحقيقة بأدب ، وبرحمة نادرة ، وببلاغة واضحة . المنهجية التصحيحية التي طبقها في معالجة القضية الشائكة ، قضية التصوف هي طريقة توضح حقاً قدرته التعاطفية على الإقناع ودون أن يسب أحداً ، أو أن يبدي ملاحظات مهينة يستخدم المصطلحات نفسها التي يستخدمها الصوفيون ، ويحاول أن يعيد تحديد المفاهيم والتصورات الصوفية لكي يتخلص من عدم التناسق والنقص ، وعدم التساوق بين هذه التصورات ، لكي تكون فيما بعد وفقاً للقصيدة الإسلامية التام وفي هذه المرحلة التمهيدية للحديث يقول مايلي :

(يقع تحت أسماء التصوف والطريقة والولاية والحب والسلوك حقيقة مقدسة باهرة مباركة روحية ومعنوية فما هي الطريقة ؟ إن الغرض من الطريقة هو تحقيق معرفة الله ، والإفصاح عن حقائق الإيمان) والمفاتيح والوسائل والسير والسلوك الذي يتم إحساسه بالقلب — تتمثل في الذكر

والتفكر ، وليس من الممكن أن نحصى المزايا لهذا الذكر والتفكر) .

(ويجب أن نبين أن الطرائق لا يمكن أن تتهم أو تشجب لأن بعضها قد بعد عن التقوى أو خرج من دائرة الإسلام) .

على أي حال إن طريق الولاية طريق سهل ، ولكنه كذلك مليء بالتعقيدات والتشابكات ، ويبدو أنه طريق قصير في حين أن طريقه شاق وطويل جداً ، إن طريقه ثمين وهو في الوقت نفسه حرج للغاية ، إنه يبدو عريضاً ولكنه ضيق للغاية .

وبسبب هذه الأسرار الخفية يغرق أحياناً بعض أعضاء هذا الطريق ويخسرون ، وأحياناً ينقلبون ويكونون سبباً لتشريد الآخرين .

ثم يواصل حديثه بطريقة مقنعة منطقية فيقول (ولكن أركان الإيمان لا تبنى على التخيل والوهم ، ولهذا : فإن أعضاء هذا الطريق يجب ألا يتبنوا هذه الطرق ، وأن يقوموا بهذه الأعمال بناء على ذلك ، بمجرد الاستيقاظ من عالم الانتشاء الروحي والاستغراق ، وهذا الطريق المرتبط بالقلب والإحساس والميول يجب ألا يترجم إلى صفة منطقية شفووية أو تحريرية ، لأن هذا الطريق لا يتسق والأسس المنطقية المأخوذة من الكتاب والسنة وأحكام الشريعة الإسلامية والقوانين الإسلامية ووسائل التفكير في الدين . وهذا ببساطة يعني أن تكون عملياً مع فقدان الجودة ، ولهذا السبب فإن هذا الطريق لم يكن معروفاً ولم يوجد أيام الخلفاء الراشدين ، والأئمة المجتهدين ، والشخصيات الكبيرة من السلف الصالح ، ومن ثم فإنها ليست أكثر الطرق فائدة ، فهي طريق رائعة ، ولكنها غير كاملة ، ويجب — بل من المهم — أن نقول إنها طريق وعر جداً ، فهو طريق ثقيل ولكنه ممتع ولذيذ ، فأولئك الذين يسلكونه للتمتع لا يرغبون في الخروج منه ، فهم يفترضون استعلاء أنه المكانة العليا) .

(ويبين طريق الولاية وأجملها وأقومها وأغناها : السنة العظيمة التي يجب أن تتبع ومن ثم فعلينا التفكير فيها واتباعها ، واستعمالها في أعمالنا وسلوكنا ، ولا بد من تطبيق أحكام الشريعة بأن تكون دليلاً للمرء في معاملاته) .

(وهذا المدخل العظيم والطريق القويم هو الذي سار فيه الصحابة والسلف الصالح ، وهم أقربنا إلى الله ، وورثة الرسالة النبوية) .

ولقد جلبت الفترة الجمهورية تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية جذرية ، وتركت تلك التغيرات بصماتها على البيئة الاجتماعية في الأناضول ، وأثرت على المناخ الفكري . كان « بديع الزمان » ومن حوله مقتنعاً بأن عمله لا يمكن أن يكون غير عمل الإصلاح ، وعندما سئل عن قلة اهتمامه بالشؤون السياسية : قدم أسباباً عديدة كأن يقول مثلاً : « ليس هذا هو الوقت لخدمة

القضية السياسية » ، وأن يقول مثلاً : « لقد انحط الناس وانعدمت الثقة فيهم » أو أن يقول : « هذا هو الوقت لإنقاذ إيمان الناس وعقيدتهم » .

ولم تكن الظروف السائدة مواتية لقيادة حركة سياسية تعتمد على الأسس العلمية والتقاليد الدينية دون التعرض لمخاطر جمّة ، وأذكر أدنى تلك المخاطر : فمثلاً في تعويقه بالاضطهاد الذي لا ينتهي ، والسجن والنفي الذي لا ينقضي وأقول : هناك سبب آخر : فمثلاً في عدم التكافؤ بينه وبين خصومه ، فبينما كانوا يتكلمون من موقع السلطة السياسية الظاهرة ، والقدرة العسكرية والمادية كان في استطاعته القيام بجهد سلمي فقط من أجل الحياة ، على أمل أن يتحول ذلك إلى وجود كريم . كما أن المحاولات السابقة واللاحقة ، والانتصارات والفشل من جانب الآخرين بدرجة كبيرة كل ذلك كان من نتيجته الانسحاب الكامل من المسرح السياسي والانسحاب عن النشاط السياسي .

وعلى أية حال فإن سوء الفهم وسوء تفسير الواقع السياسي في أيام « بديع الزمان » الأخيرة أسلم كل ذلك نفسه للتناقضات حتى بين أتباعه اليوم .

ونتيجة لذلك فإن بعض أتباعه حرّموا على أنفسهم أي نوع من الانغماس السياسي ، ويذكرون في ذلك شعاره الموقر (إنني أعوذ بالله من الشيطان والسياسة) .

بينما انغمس آخرون في نشاطات حزبية ، سياسية بطرق محدودة ، مع التظاهر خارجياً بالالتزام بالشعار نفسه . وهذه الازدواجية تصبح أكثر إثارة ، وأكثر تخريباً في السنوات الأخيرة وخاصة في أواخر الستينيات والسبعينيات .

ولا يمكن أن ننكر أبداً أن الحركة الديمقراطية بقيادة « عدنان مندريس » الذي أصبح رئيساً للوزراء بعد الانتخابات العامة سنة ١٩٥٠م لقيت دعماً معنوياً من « سعيد النورسي » نفسه ، وكتب « بديع الزمان » خطابات إلى رئيس الوزراء « عدنان مندريس » وأشار إليه قائلاً : بأنه بطل الإسلام ، مقدماً له النصيحة ، والتشجيع لخدمة الإسلام .

إذاً فالحقيقة أن « بديع الزمان » لم يطلق السياسة إلى الأبد وبالكلية ، وهذا الخطاب السياسي جداً وجّه إلى أهم رجل سياسي قيادي في الدولة عندما أعطى الحزب الديمقراطي المنتخب بعض الحرية للمشاعر الإسلامية ومستقبلاً أفضل للأغلبية المضطهدة وقال « بديع الزمان » (من أجل الديمقراطية الدينية وشخصيات معينة مثل « عدنان مندريس » نظرت ساعة أو ساعتين في السياسة التي كنت تركتها طول الخمس والثلاثين سنة الماضية وكتبت ذلك (الخطاب) .

وهناك نقطة تحول في تاريخ الجمهورية ، هذه النقطة هي : الانقلاب العسكري سنة ١٩٦٠م الذي أطاح بحكومة « عدنان مندريس » وأعدم .

كما أن التغيرات الدستورية التي جاء بها الجيش ، أدخلت بعض الأحكام التي مهدت الطريق لانتشار الأفكار الاشتراكية تحت غطاء الأحزاب السياسية ، والتي يُقال إنها قد أحضرت وعياً سياسياً بين مختلف قطاعات المجتمع الأناضولي . وفي سنة ١٩٦٠م مات « بديع الزمان » وهو في السابعة والثمانين من عمره ، ولم يترك خليفة له ظاهراً بين أتباعه ، ونمت الحركة على مر السنين ، وحصلت على تأييد كبير وأهمية كبرى ، وخاصة في أواخر الستينيات . لقد انقضت شخصية « بديع الزمان » السحرية ، وجهاده الذي لم يتوقف ، والذي كان يثير الحماس الكبير من أجل الدعوة الإسلامية ، وخلف موته فراغاً كبيراً في صفوف مؤيدي النورسي الكبير ، وتبع ذلك سلسلة من أزمات كثيرة متتالية تتعلق بالقيادة ، وكانت الجماعة تفتقر إلى الخبرة التي تؤهلهم للمواءمة بين المشكلات التي تقسمهم ، وتعددت الجماعات بمرور الوقت . وهكذا فإن الصورة العامة ، والعمل للدعوة الذي تضطلع به الحركة النورسية قد تعرض لمعاناة شديدة .

ثم جاء بعد ذلك تكوين حزب العدالة ونموه ، الذي زعم الإرث السياسي للحزب الديمقراطي المحظور (حزب مندريس) . وهناك قطاعات قليلة من النورسيين باركت قيام هذا الحزب الجديد الذي أسسه الدكتور « سعد الدين بلجك » ثم زحف على قيادة الحزب وانتزعتها « سليمان ديمريل » من الدكتور « بلجك » . واستمر قسم كبير من النورسيين يدعم « ديمريل » خلال حياته السياسية . كل هذا يقدم لنا دليلاً واضحاً لاشتراك « النورسي » في تشكيل المصير السياسي للدولة .

ومع تأسيس « حزب السلامة » مارست الجماعة « النورسية » معارضة راسخة أخرى ولقيت الادعاءات التي وُجّهت من دوائر حزب السلامة إلى النورسيين استجابة حقيقية ، بينما بعض قوى الضغط داخل الجماعة النورسية شعرت بضرورة التعاون مع حزب السلامة ، نظراً لأنهم قد وجدوا في ذلك نهضة الحركة السياسية مع محتوى إسلامي مشهود . وفي الواقع فإن بعض الشخصيات النورسية المحترمة أخذوا أماكنهم في حملة انتخابات حزب السلامة في أكتوبر سنة ١٩٥٣م حين عُين بعض الشخصيات النورسية القيادية وزراء في قائمة حزب السلامة وذلك في الحكومة الائتلافية السلامية الجمهورية التي شكلت سنة ١٩٧٤م هذا مع عدم إغفال بعض العناصر النورسية الأخرى التي حملت لواء معارضة شديدة ، لحركة السلامة التي ولدت حديثاً .

واليوم فإن بعض المجموعات النورسية القليلة تحافظ على حيادها السياسي التام وتبدي نوعاً من عدم المبالاة بالتيارات السياسية حولهم ، وهذا أضعف الحركة النورسية ، وبدد قدراً كبيراً من طاقاتهم الإسلامية الماضية . وفي الوقت الحاضر لاتزال بعض قطاعات حزب السلامة تجاهد حفاظاً على الصورة الكلاسيكية للحركة النورسية ، ويتطلعون إلى تأثير أكبر بأمل السيطرة

على المسرح الاجتماعي . وتعتمد فرص نجاحهم على أي حال على عدد من الإجراءات
« الراديكالية » .

ونرى أولاً : أن الجماعة النورية اليوم أكثر من أي وقت في الماضي تحتاج قبل كل
شيء إلى قيادة مسيرة رقيقة قادرة على التوحيد ، ليس بين المنشقين النورسيين فحسب ، بل
لاجتذاب عناصر جديدة متعاطفة من بين الجماعات الإسلامية الصغيرة الأخرى ، الذين يعانون
من المرض التنظيمي نفسه .

وثانياً : التصنيف الفكري الذي نشأ على مسار الحركة في الدوائر النورية يجب أن يحل
محله الأفق الإسلامي العريض ، والتفاعل الوثيق مع الجماعات الإسلامية الأخرى للاستفادة من
الخبرات الأخرى وذلك لتوسيع مجال تأثيرهم المستقبلي .

* * *

المراجع

- ١ — بديع الزمان / سعيد النورسي — سوزلار — يانينفي ١٩٧٦ (لم يذكر اسم المؤلف) .
- ٢ — مكتوبات بديع الزمان / سعيد النورسي — (لم يذكر التاريخ واسم الناشر) .
- ٣ — بديع الزمان / سعيد النورسي — سوزلار — يانينفي ١٩٧٧ .

